مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (7) العدد (1) 2023
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (7) No. (1) 2023

جدلية الأنا والآخر في شعر أدونيس (2003 . 2010)

***د. يوسف حامد جابر**

****نور فيصل مخلوف**

(تاريخ الإيداع 11/13 /2022. قُبِل للنشر في 1/29 /2023)

□ ملخّص □

إذا كان الحب هو وسيلتنا لمعرفة الآخر، ولمعرفة أنفسنا، كونه يعمّق الإحساس بذواتنا وبأجسادنا، فهو الباب الذي يُفتح أمامنا لإدراك العالم؛ وهذه الجدلية (الديالكتيك)– جدلية الأنا و(الآخر) تُعدّ الجوهر الأبدي والمتحوّل لفكرة النشوء البدئي، تلك الفكرة التي ارتبطت بشكلها العام بالخنوثة كرمز يجمع بين الذكورة والأنوثة في معناها الإنساني، كون الإنسان يجمع القطبين بالضرورة . هذا ما يعمل البحث على إثباته أو تأكيده . وارتبطت بشكلها الخاص بالحب، وارتباط هذا الديالكتيك بالحب قائم على العلاقة بين جسدي بوصفه أناي، بالجسد الآخر–المقابل والمختلف– عن ذاتي. كونك لن تدرك جسدك في ماهيته وجوهره، إلا من خلال جسد الآخر، أن تشعر بجسد الآخر هو في حقيقته شعور بجسدك، إنه تأكيد على حضورك الجسدي.

كلمات مفتاحية: الأنا ، الآخر، أدونيس.

*أستاذ. قسم اللغة العربية. كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة. جامعة تشرين. اللاذقية. سورية.

**طالبة دكتوراه (الدراسات الأدبية)– كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة. قسم اللغة العربيّة– جامعة تشرين– اللاذقية–سورية.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (7) العدد (1) 2023
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (7) No. (1) 2023

The Dialectic of the Self and the Other in the Poetry of Adonis (2003-2010)

D.Yousef Hamed Jaber*
Nour Faisal Makhlouf**

(Received 13/11 /2022. Accepted 29/1/2023)

□ ABSTRACT□

If love is our means to know the other and ourselves, since it is related to recognizing our inner selves and our bodies, then it can be considered the gateways that unfolds allowing us to perceive the world. This dialectic (the Self and the Other), is the eternal and transformative essence of the idea of primordial genesis. That idea, in its general form, was associated with hermaphroditism as a principle that combines masculinity and femininity in its human meaning, since man necessarily combines its two poles. This is what the research aims to prove or manifests. Moreover, this idea is associated with its own form with love. The connection of this dialectic with love is based on the relationship between 'my body' as 'my Self', with the other body – the opposite and different - from myself. As you will not realize your own body in its quintessence and essence except through the body of the other and to feel the body of another is in fact a feeling of your own body and an affirmation of your physical presence.

Key words: Dialectic, The Self, The Other.

*professor at Arabic language and Literature Debartment- Tishreen University- Lattakia-Syria.
**P.HD student Arabic Department-Faculty of Arts.

مقدمة:

إن جدليّة الأنا والآخر هو المكوّن الجوهري لمعرفة ذواتنا ومن ثمّ فهم الآخر؛ وإدراك كنه الوجود. ويعد أدونيس من أهم الشعراء الذين عالجوا كينونة الإنسان، وبحثوا في خبايا النفس الإنسانية، وفي بطريركية المجتمع العربي، وما حملته من سيطرة قمعية على الهوية الأنثوية. وحاول عبر نصوصه الشعرية والنثرية تسليط الضوء على تلك الإشكاليات محاولاً دراسة واقع المجتمع الذكوري، وتأثيره على تلك االهوية، وبالمقابل التأكيد على دخول هذه الهوية في تكوين الذات، كونها جزءاً من ماهيته.

أهمية البحث وأهدافه:

تنبع أهمية البحث من محاولته قراءة نصوص شعرية لأدونيس تقف على إشكالية كونية/ وجودية، وأساسية في معرفة الإنسان، تلك المعرفة التي لا تكتمل إلا بمعرفة الآخر.

يهدف البحث لإثبات مبدأ التكامل بين الذكورة والأنوثة؛ وفق ما ورد في نصوص أدونيس.

منهجية البحث:

نهجنا في دراستنا منهجاً تحليلياً، يقوم على رصد جدليّة الأنا والآخر في بعض النصوص الشعرية لأدونيس، وحاولنا قراءة هذه النصوص قراءة تحليليّة توضح رؤية أدونيس حول هذا المفهوم.

الدراسات السابقة:

لقد اعتمد البحث على كتب عالجت قضية الأنا والآخر لتكون بذلك ركيزة أساسية يقوم عليها البحث ومن أهمها: باليا، كاميلي. أقنعة جنسية. الفن والانحطاط من نفرتيتي إلى إميلي ديكنسون . محمود ابراهيم.2009. الأنثى المهدورة (لعبة المتخيل الذكوري في صناعة الأنثى).. وغيرها

جدليّة الأنا والآخر في شعر أدونيس (2003-2010)

الجَدل كما ورد في لسان العرب هو " اللَّدَدُ في الخصومة والقدرةُ عليها، وقد جادله مجادلة وجدالاً. ورجل جَدل ومِجدَل ومِجدال: شديد الجدل. ويقال: جادلت الرجل فجَدَلته جدلاً أي غلبته....والمجادلة: المناظرة والمخاصمة، والمراد به في الحديث الجَدَلُ على الباطل وطلبُ المغالبة به لا إظهار الحق."[1]

انطلاقاً من كون الشيء لا يعرف إلا بضده ، فالآخر هو المكون الأهم لهويتنا، فبقدر ما تعبّر الهوية عن أنفسنا، بقدر ما تحتاج إلى الآخر ليكوّنها، فالإنسان " يرغب في أن يحيا هويته حتى العشق الذاتي ولكن الغير قدره ومرآته)"[2] ، والاختلاف بين الأنا والآخر هو البعدُ الذي يتيح إمكانية معرفة الذات لصورتها في الآخر، إنه المرآة التي تكشف الفرق والتشابه، فبالفرق تتميز الذكورة والأنوثة وبالتشابه تمتزج الأدوار بين فاعل ومنفعل وفق دوران يقتضي التوحد والتماهي " فالمرأة هي مرآة للرجل، يرى فيها صورته ويحب ذاته، كما هو مرآة لها ترى فيه صورتها وتعشق ذاتها. ولكن المرآة لا تعني فقط تماثلاً بين متمرئيين ويولد عشق الذات عند كل منهما. وإنما تعني شيئاً آخر مفاده أن الإنسان يرى في نفسه، وبالآخر، ما لا يراه في نفسه بنفسه. بل تأويل

[1] ابن منظور، الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، المجلد الحادي عشر، الطبعة الثالثة، دار صادر 1994، ص105.

[2] حرب، علي. التأويل والحقيقة(قراءات تأويلية في الثقافة العربية)، الطبعة الأولى، دار التنوير، 2007،ص86.

المرآة هنا أن الواحد لا يمكن أن يرى نفسه بنفسه بل بآخر مغاير له."[3] فالآخر هو امتداد لنا، إنّه الوجه الخفي الذي نبحث عنه، ولا يمكننا رؤيته إلا من خلال الآخر، الآخر الذي هو مرآة لوجودنا، من هنا فإن المرأة هي صورة الرجل، رغم اختلافها عنه، فصورة الشيء ليست الشيء نفسه (الشيء بذاته)، إنّها البعد الآخر لذاته وربّما البعد الحقيقي لهذه الذات كونها (الصورة) تحقق اكتمال هذه الذات.

من هنا تعدّ ثنائية الأنا والآخر من أهم الثنائيّات التي أثارت جدلاً واسعاً في الميادين الفلسفيّة، والثقافيّة، والأدبيّة، إنها إشكالية ترتبط بالكينونة وبعلاقة الجسد بوصفه أنايً مع الجسد الآخر، هذا الآخر الخارج عن ذاتي ومن خلاله أعرف نفسي " فمعرفة الإنسان فرداً كان أم جماعة، تمر في النهاية بالآخر. فالهوية نسبتنا إلى الآخر "[4].

إذا أخذنا بقصة آدم وحواء، كما رُوّج لها في التراث الديني، والتي شكّلت النقطة الارتكازية للعلاقة بين الرجل والمرأة، فإنّها توحي لنا بالوحدة الكامنة في الجنس البشري، فمن ضلع آدم خُلقت حواء ، معنى ذلك أن آدم كان حمالاً للصفات الأنثوية والذكورية في آن معاً، ومعنى ذلك أنّ الأنوثة هي، بدئياً، في داخل الذكورة. فليست المرأة كائناً من خارج الرجل، وإنما هي كائن من داخله. والعكس– إذاً– صحيح. فالرجل مملوءٌ، طبعاً وطبيعة، بالمرأة. والمرأة مملوءةٌ بالرجل، طبعاً وطبيعة. "الإنسان الحقيقي ليس ذكراً أكثر مما هو أنثى، إلاّ بالدرجة. وليس أنثى أكثر مما هو ذكر إلاّ بالدرجة كذلك. إن رجلاً لا أنوثة فيه كائن يعيش في خلل بيولوجي. وما يقال هنا عن الرجل، يمكن أن يُقال عن المرأة، كذلك." [5] وهذا ما أكدته الدراسات العلمية حول تلك الوحدة بين الذكورة والأنوثة، فقد أتاحت "المعطيات العلمية اليوم التأكيد أنه في مرحلة مبكرة جدا للتطور الجنيني، أن الغدد التناسلية للجنين البشري تمتلك بالفعل هذه الوحدة)"[6]. وهذا يعيدنا إلى فكرة " الازدواجية الجنسية (الخنوثة) Androgynizm وهي النظرية القائلة بأنّ الناس كانوا يتمتعون بالبدايتين الذكرية والأنثوية في آن معاً. غير أنهم ارتكبوا ذنوباً في حق زيوس، فقسمهم إلى جنسين منفصلين– رجال ونساء. ومنذ ذلك العهد يسعى الناس بشوق ولهفة لكي يعثر أحدهم على النصف الآخر كي يعودوا إلى الكلية الأولى)"[7].

ويعتقد أريستوفان أن فكرة الجنس قد أتت من هذا التوق للاتحاد بعد الانفصال الذي فرضه زيوس، أما ثيودور رايك فبرأيه أن تفسير أريستوفان لهذه الأسطورة ما هو إلا تعبير عن أصل الحب فيقول: "ولن تكون جرأة زائدة منا أن نزعم أن أريستوفان يعالج هنا أصل الحب ومنشأه أقل مما يعالج أصل الجنس، وأنه يرد الجماع إلى إعادة الجزئين المنفصلين إلى حالة اتحادهما الأصلية.(البروتوزوا)."[8].وقد يخالف البحث رأي رايك فأغلب الظن أن أريستوفان حاول فهم هذا التوق كونه رغبة بالاتحاد الجسدي. كون مفهوم الحب هو مفهوم متأخر ولعل ظهوره الأول لم يكن مرتبطاً بالجنس بل بعلاقات إنسانية أخرى.

وسواء أكان هذا التوق هو أصل الجنس أم الحب ، يبقى الهدف هو العودة إلى الكلية الأولى أو البدء الأول، إنه الاتحاد بمفهومه الكوني.

---

[3] حرب، علي. الحب والفناء(المرأة / السكينة/ العداوة). 2007، منشورات الاختلاف. ص25

[4] حرب،علي. التأويل والحقيقة. ص84

[5] أدونيس. المحيط الاسود.الطبعة الأولى، دار الساقي، 2005، ص497.

[6] سيرنج، فيليب. الرموز في الفن-الأديان- الحياة. تر:عبد الهادي عباس،الطبعة الأولى، دار دمشق ،1992. ص261-262

[7] شستاكوف، فياتشتسلاف. الإيروس والثقافة(فلسفة الحب والفن الأوروبي). تر: نزار عيون السود، الطبعة الأولى، المدى ،2010. ص 32-33.

[8] رايك، ثيودور. سيكيولوجية العلاقات الجنسية. تر: ثائر ديب. الطبعة الأولى، دار المدى، 2005، ورد في الهامش ص22.

لقد عالج أدونيس هذه الفكرة في أشعاره، عائداً بنا إلى المثيولوجيا الإغريقية والرومانية يسائل أوفيد شاعر التحولات والحب عن موقفه من الحرب القائمة بين الذكورة والأنوثة، متمثلة بجوبيتر إله الحرب، أو مع آلهة الطبيعة المتضمنة لكل منهما في آن معاً، يقول:

أوفيد،
لا يزال المسرح واحدا،–
أين تقف الآن؟
مع جوبيتر، أو إلاهات الماء والشجر؟
مع الذُّكورة والأنوثة؟ أو مع الخنوثة؟
وما التحولات التي تكتبها الآن؟[9]

فالخنوثة هنا هي صفة الآلهة (آلهة الطبيعة)، هي صفة الكمال، والكليّة.

كون أوفيد أعاد كتابة الأساطير الإغريقية كتابة تحاكي البعد الإنساني فيها، فهو شاعر الاختلاف والتحولات كأدونيس الذي قرأ التراث العربي بدوره وكشف عن قيمة الإنساني فيه، وكلا الصوتين (صوت أدونيس الذي كتب القصيدة وصوت أوفيد الذي أعاد أدونيس إحياءه داخلها) يحملان على عاتقهما فكرة الحضور الإنساني وإعادة بناء مفاهيم جديدة تعزز هذا الحضور بوجهيه الأنثوي والذكوري.

إنّ الوجود البشري قائم على الزوجيّة لا الفردية، الفردية هي صفة إلهيّة، ولعل التمايز والفرق الجوهري بين الكائن البشري والذات الإلهية، هو هذه الازدواجية في العملية الخلقية " وعليه فقد كان الفعل الجنسي أكبر حدث أنطولوجي بالنسبة إلى الكائن الإنساني طالما هو على قيد الحياة، من حيث هو المعقل الوجودي الكبير لتأكيد تمايزيته عن خالقه وموجده في هذا العالم، فهو إذ يمارس الجنس، فإنه يتأكد حضوراً أنطولوجياً* "[10] ، إنّ هذا الوجود المختلف هو الطريق للتشابه، أو للتقارب، أو للتوحد مع الوجود الكلي الأحادي، يقول أدونيس:

الوجود هو أن يقال بأفكار متعدّدة وطرائق متعدّدة. ذلك أنَ الوجود، تحديدا، متعدّد،لا أحادية إلاّ أحاديّة الخالق.

حقيقة الوجود المخلوق أنّه كثير.
أفكر،
وأجهر بما أفكرّ، حرًّاً،
وأتيح لغيري حقّه في هذا كلّه،
الآخر الحرُّ شرطٌ لوجودي الحرّ.[11]

فرغم التأكيد على الوحدة داخل الثنائية الذكورية– الأنثوية، أي أن للأنثى صفات ذكورية وراثّياً وتشريحياً، وفيزيولوجياً، ونفسياً، وثقافياً، والعكس صحيح، ولكن كمال صفاتها الإنسانية تتوقف على الآخر.[12] فالآخر يعيد خلقك باستمرار، لأنك الشرط الذي يجعل حريته تخضع وتلتزم، بالمقابل فإن وجودي يمنح الآخر

(9) أدونيس.تنبأ أيها الأعمى،الطبعة الأولى، دار الساقي،2003، ص21

(10) بني عامر، معاذ. الجسد والوجود، العتبة المقدسة. الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 2015،ص71.
*أنطولوجيا: علم الوجود.

(11) أدونيس. موسيقى الحوت الأزرق(الهويّة،الكتابة، العنف).الطبعة الأولى، دار الآداب، 2002، ص188.

(12) انظر:موران، أدغار. النهج إنسانية البشرية. الهوية البشرية. تر: د. هناء صبحي، الطبعة الأولى، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث(كلمة)، 2009، ص102.

بعداً جديداً في كينونته، ويتحقق ذلك بتحرير الذات كنقطة بداية، أساسية، وحتمية لتحرير الآخر. فالأنا هي وجه الآخر، والآخر هو وجه الأنا، وبقدر الاختلاف يخلق التماهي والوحدة لأن " كلاً من الرجل والمرأة في ذاته ليس إلا نصف إنسان، وباتحاد النصفين يحصل الواحد، فهما هكذا كانا في أصل الحياة لا يتم الواحد إلا باتحاده مع الآخر"[13]، والاختلاف بين الرجل والمرأة هو اختلاف على المستوى الروحي والمعرفي، ومستوى الخلق والإبداع بينهما، أما أصلهما فواحدٌ ويتحقق هذا الأصل بارتباطهما، فقد خلقا من نفس واحدة، إنهما جوهر واحد، يقول أدونيس:

...كلاّ، ليست النساء ظلمات، وليس الرِّجال بروقاً:
أشجارٌ واحدةٌ بنسغٍ واحدٍ لشهوةٍ واحدةٍ: الحياة، الحبّ،
الشعر، المال، غالباً، والسياسة، أحياناً.[14]

فالحديث عن " امرأة/ رجل باستحضار بعدي الأنوثة والذكورة يندرج في سياق الاختلاف بين منفعل وفاعل من الناحية الروحية والمعرفية، أما الحديث عن المرأة والرجل من الناحية الإنسانية فيقضي النظر إلى الوحدة التي تطبع الكائن البشري في أصله وأحكامه."[15]

وهذا يعود بنا إلى مفهوم الجندر*، وإلى اكتمال الهوية الجنسية عند كل من المرأة والرجل، ويتقاطع مع ما اعتمد عليه فرويد في تحليله النفسي القائم على مبدأ " الوحدة الجنسية عند الذكر والأنثى، وهي أولى نظرياته حول الجنس في تكوين الأنوثة والرجولة"[16]

إضافة إلى نظرية العالم النفساني كارل يونج عن "الأنيموس (Animus) وهو الضمير الذكوري داخل المرأة، وهو مفهوم يقوم على فكرة أن الأنثى تنطوي في داخلها على (ذكورة) مثلما أن الرجل يتضمن في داخله أنوثة هي الأنيما (Anima) وبالتالي فإن الإنسان مزدوج الجنسية، وتكمن هذه الثنائية في اللاشعور)"[17].

وها هو أدونيس يؤصل لهذه الفكرة في قصائده، مؤكداً على فكرة اجتماع الأنوثة والذكورة في تكوين كلٍّ من المرأة والرجل، ففي البدء كان المثنى/ذكراً وأنثى .. أو في البدء كان الإنسان بذكورته وأنوثته، هنالك أمثلة كثيرة في قصائد أدونيس تتضمن فكرة الأصل أو العودة إلى البداية .. (المثنى) ومنها قوله:

جسدُ هذه المرأة يزحزح الفصول
كنت في طفولتي، أرجم غدير الصيف بالحجر
في شيخوختي، يرجمني حجر آخر
هل يثأر الحجر؟
على الشاطئ نفسه،
تخيلّت أنّ جسدي أمواجٌ لا شطآن لها

---

[13] دي بوفوار،سيمون. كيف تفكر المرأة؟ .المركز العربي للنشر، الاسكندرية، ص43
[14] أدونيس. فضاء لغبار الطلع. الطبعة الأولى، كتاب دبي الثقافية، يصدر عن مجلة دبي الثقافية، دارالصدى، 2010، ص86
[15] براضة، نزهة. الأنوثة في فكر ابن عربي. دار الساقي. ط1 2008، ص146.
*الجندر: هو بنية اجتماعية من الأفكار والأعراف والصفات التي تميز بين الذكورة والأنوثة.
[16] حب الله،عدنان. التحليل النفسي للرجولة والأنوثة من فرويد إلى لاكان. بإشراف المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية ، دار الفارابي. ص224
[17] الغذامي، عبد الله. المرأة واللغة.الطبعة الثالثة،لدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2006. ص23.نقلا عن: Jung:The portable Jung,edj. Campbe 11 148 penguin Books 1982)

وشُبه لي أنني أقولُ لمخيّلتي:
أنا مُثنًّى نفسي، وأنا جمعُها.
ينحدرُ جسدانا، أيّها الصيّفُ،
من سنابل واحدة.[18]
ويقول أيضاً:
...جسدك سائلٌ في جسدي.
جسدي بين مؤنَّثين:
ذاتي وأنتِ.
جسدكِ
أقرب إليَّ مِنيّ.
جسدك بين يديّ،
ولا أريد أن أعرفه إلاّ بالغيب الذي فيه.
جسدانا كتابةٌ
وكلاهما كتابٌ للآخر.
جسدانا وحيٌ
ويرفضان الهياكل.
جسدك أعرف بي منيّ
جسدك يكلمني منيّ.
جسدي مفرد بجسدكِ:
فرادة مثنويّة
جسدكِ
طِ لَّ س مّ (لي)
مُ سَ لَّ طٌ (عليَّ) [19]
ويقول أيضاً:
...في البدء كان المثنى[20]

جسد الآخر/ المرأة هو القادر على تغيير النهايات، تغيير الواقع، والعودة إلى البداية/ الأصل. فها هي أيضاً تحمل صفات الأنوثة والذكورة ليكتمل تكوينها، ما يجعلها تعرف جسدها أكثر، ويعرف الآخر نفسه من خلالها، من ثمَّ تعرف نفسها وتتكشف أسرارها

لا ترى حبّها مفرداً
إلاّ إذا رأت جسدها مُثنّى...[21]

(18) أدونيس. وراق يبيع كتب النجوم. الطبعة الأولى، دار الساقي، 2008،ص226
(19) أدونيس.أول الجسد آخر البحر، الطبعة الأولى، دار الساقي، 2003، ص183- 184.
(20) نفسه. ص201
(21) اهدأ هاملت تنشق جنون أوفيليا. الطبعة الأولى، دار الساقي، 2008، ص184

منذ لقائنا، تقول:

فكر جسدي مُثَّنى

هكذا، لبستني رائحتُك.

هكذا، أحفظ الموت غيباً دون أن أتعلّمه،

وأتعلّم الحياةَ ولا أقدر أن أحفظها.[22]

وجود الآخر في الأنا يكشف عن معانٍ لأبجديتها، لغموضها، وبقدر ما تتكشف وتتضح معالمها، بقدر ما يتأصل هذا الآخر فيها، ذلك أنها لن تتمكن من معرفة نفسها بدونه، وهو بالمقابل لا يمكن أن يعرف نفسه إلا من خلالها (من خلال جسدها) فباتحاده معها يحققان الكمال.

... لم يكن بين حاضرك وحاضري أيّ جسرٍ،

فبأيّ سرٍّ التقينا؟ وكيف حدث أن يكون

لجسدينا كلامٌ واحدٌ، مع أنَّ لكلٍّ منّا لغته

المختلفة؟ وكيف صَحَّ في لقائنا أن تكونَ

الرّياح لنا، وهي ليست ملكنا؟ وها نحن

اليوم: شفاهُنا ليست سُلّماً موسيقياً،

وقبلاتُنا ليست أنغاماً، فمن أين لدمي

ودمكِ، رقصهما الواحد؟

قولي لجسدكِ:

<<أنت البحيرةُ المفردةُ لمائنا المثنّى>>[23]

يعيد أدونيس للأنثى بعدها الميثولوجي، فهي الأصل الحامل لصفات الذكورة والأنوثة " لعل مفردة الأنثى تقابل في حقيقتها اللغوية: التثنية، إن أنث هي ثنى"[24]

يقدم أدونيس أمثلة عدة لشخصيات اجتمعت فيها صفات الأنوثة والذكورة معاً، فكانت استثناءات في تاريخ العالم، إن انفتاح تلك الشخصيات على عوالمها الداخلية واكتشاف مكوناتها كان محفزاً لمعرفة الكون وامتلاكه، فهذا الاسكندر في قصيدة(تمثال لرأس الإسكندر) وتلك كليوباطرة في قصيدة (كيلوباطرة، أيضاً وأيضاً)، كل منهما عرف الكمال واكتسب صفات كونية

لا يرى الإسكندر نفسه إلاّ بحراً في صورة الأرض

الكون يرسم حدوده بأهدابه،

والأرض كمثل امرأةٍ توشوشهُ:

أحب أنوثتك."[25]

"عرفت كليوباطرة (ستّ نساءٍ قبلها حملن اسمها)،

كيف تتفّح الوَصل بين الحضور والغيبِ وبين

---

[22] أول الجسد آخر البحر. ص197.

[23] أدونيس. ليس الماء وحده جوابا عن العطش. الطبعة الثانية منقحة، دار التكوين، 2010،ص69.

[24] محمود،ابراهيم. الأنثى المهدورة (لعبة المتخيل الذكوري في صناعة الأنثى). الطبعة الأولى، مركز الإنماء الحضاري، 2009،ص59.

[25] أدونيس. ليس الماء وحده جواباً عن العطش.ص49

الذّكورة والأنوثة،
الملكة الأخت الأمّ العَشيقة:
ماءُ الأبديّة يمتزج برُضابها،
برُضابها كذلك تتبرّك سُرَّةُ الفلك.
كليوباطرة،
هل قلت للشّهوات أن تحملَ، هذه اللّيلةَ،
زهورها إلى فراشكَ؟
لكن، متى تعودين من هذه الهجرة إليهم–أولئك
الذين لم يعودوا يملكون حتّى دموعهم؟
كليوباطرة..
ألفظ هذا الاسم، وأرى ناراً تنبجسُ منه،
ناراً تلتهم السّماء كأنّها قُبّةٌ
من القش.
ثمّ أسألها:
كليوباطرة،
متى ستصبح الأرض
مثلكِ سماء نفسها؟[26]

إن هذا التكامل والاكتمال يمثل وحدة الوجود، الذي يقودنا بدوره لمعرفة العالم، ومعرفة الآخر كموجود مقابل لوجودنا، هذا الآخر الذي من خلاله تكتمل معرفتنا بأنفسنا ،محققه هذا التكامل من ثمَّ المعرفة بالعالم . ولعل الخنوثة هنا تستخدم لتدل على الذكاء الإنساني

فالخنوثة "أو الجمع بين ميول الذكورة والأنوثة bisexuality في الرمز أو القناع، تعيد خلق أو ابتكار مجمل علم النشوء البدائي"[27]، ولكي يصبح الفن بعامة والشعر بخاصة "جذاباً ومعبراً عن تحولات النوع، لا بد له أن يكون مزدوج الجنس bisexual في الأصل)"[28]؛ وعليه قد تكون هذه الخنوثة هي رمز إبداعي.

ولعل معالجة أدونيس لهذه القضية وتأكيده على الأنوثة متمثلة بالمرأة، أو بالرمز الإبداعي(اللغة)، أو كونها جزءاً مكملاً لوجوده، ينفي اتهام الغذامي لأدونيس بالأنا الفحولية، أو البطريركية، وذلك عندما حدد سمات شعرية أدونيس ب "أ. مضاد للمنطقي والعقلاني. ب . مضاد للمعنى، وهو تغيير في الشكل ويعتمد اللفظ. ج . نخبوي وغير شعبي. د . منفصل عن الواقع ومتعال عليه. هـ . لا تاريخي. و . فردي ومتعال، ومناوئ للآخر. ز . هو خلاصة كونية متعالية وذاتية. ح . يعتمد على إحلال فحل محل فحل، وسلطة محل سلطة. ط . سحري، والأنا فيه هي المركز "[29]

---

[26] أدونيس. ليس الماء وحده جواباً عن العطش. ص76-77

[27] باليا،كاميلي. أقنعة جنسية. الفن والانحطاط من نفرتيتي إلى إميلي ديكنسون. ترجمة وتقديم: ربيع وهبه، الطبعة الأولى، دار التنوير، المركز القومي للترجمة، 2015،ص146.

[28] نفسه، ص386.

[29] الغذامي،عبد الله محمد. النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية. الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.، 2005، ص293-294.

إلا أنّ ما لاحظناه في تلك المقاطع الشعرية يخالف معظم ما جاء في هذا الطرح ، ونعتقد أن أدونيس سعى في هذه المقاطع لاكتشاف أو تأكيد الجانب الأنثوي داخله، ولعل اللغة لم تكن أقل أهمية في إضاءة هذا الجانب بداخله. وهذه الأنا المتعاظمة عند أدونيس لا تتبلور إلا باكتمال وجوده، وهذا الاكتمال لا يتحقق إلا باكتشافه للجانب الأنثوي الذي يكمله. فهل يمكن أن تكون تلك الفحولة مستترة خلف قناع الأنوثة؟! هل البحث عن تلك الأنوثة هو لتعزيز فحولة أكثر تضخماً؟! وفي حال كانت تلك المقاطع الشعرية تخفي خلفها ذكورية، بطريركية، وأنا متضخمة، فما الغاية من تعزيز فكرة الأنوثة والوصول بها إلى درجة التأليه؟! وهل من المنطق أن يكون هذا التأليه لإخراج المرأة من دائرة الحياة؟! نظراً إلى أن كل ما هو ألوهي هو خارج منظومة الحياة الطبيعية، الواقعية، فالألوهة هي تعالٍ عن كل الموجودات، ومن ثمَّ أن نؤلّه الشيء من هذا المعنى أي أن نقتله، ولا نعتقد أن أدونيس عمد إلى تأليه الأنوثة من أجل قتلها، ومن ثمَّ إزالة الستار عن الفحولة المضمرة، أو الضمنيّة.

الأرجح أن يكون هذا التأليه هو للتعبير عن الوحدة الكونية، أو الاتحاد الكوني، المنشود من التقاء الأنوثة والذكورة، وهي لا تتحقق في الذكورة أو الأنوثة كل على حدا، وإنما بالتقاء القطبين معاً.

وهذا يذكرنا بموقف المتصوفيين من الأنوثة، ولا يخفى على أحد تأثر أدونيس بهذه الثقافة ومفهومها للحب ووحدة الوجود فالمتصوف " يدرك في صورة الأنثى التجلي الأسمى للألوهة الخالقة "[30]

وهذا ما يؤكده أدونيس في موقع آخر قائلاً:" لا يبلغ الرجل رجولته إلاّ في الأنوثة"[31] ،فلكي يصل الإنسان إلى المطلق لابد من أن بمر بالأنوثة، ويتقاطع هذا الكلام مع مفهوم ابن عربي للأنوثة فهو القائل " المكان الذي لا يؤنث لا يعوّل عليه"[32] ، ليأخذ الجسد بعداً كونياً " إنّه التجسُّم / التجرّد، أو قلْ التتّرب / التألّه.. الجسد لذاته، إذن، لا معنى له. لكن الجسد، في الوقت نفسه . حتّى في جانبه الغريزيّ "طريقٌ إلى المعرفة الإنسانيّة التي لا بدّ منها لتلقي المعرفة الإلهيّة.."[33]. يقول أدونيس:

ادخلْ أدونيسُ في الرّمز،
لك دورتانِ طبيعيّتان . نباتيّة وكوكبيّة.
ادخلْ إذاً في العقل والقلب.
واقرأوا صفاته: " إنه الإلهُ ذو الأسماء الكثيرة" . أسماءُ ذكورٍ،
وأسماءُ إناث. يجمع في شخصه الأرضيّ . السّماويّ، الذكورةَ
والأنوثة. يتأنَّثُ فيما يتذكّر، ويتذكّر فيما يتأنّث.[34]

" فحين كان الله في الأزل يتوق لكي يُعرف، أي ليكشف ذاته فقد كان يتوق إلى أسمائه التي لم تعرف. وحين يبلغ المتصوف إلى معرفة ذاته، يبلغ كذلك إلى معرفة الاسم الإلهي. وهذه المعرفة هي التي تكشف له حقيقة الأنثى . الخالقة. فكأن الذات، النفس، رمز المرأة وكأن النفس هي القوة الخالقة، بالنسبة إلى الجسد. والمتصوف يتأمل متقمصاً آدم. والله أحب آدم، بالحب نفسه الذي أحب به آدم حواء. وآدم إذ يحب حواء

(30) أدونيس. الثابت والمتحول(بحث في الإبداع والاتباع عند العرب). ج1،الطبعة الثامنة، دار الساقي، 2002، ص284.
(31) أدونيس. النظام والكلام. الطبعة الأولى، دار الآداب، 1993، ص210.
(32) ابن عربي، الشيخ مُحيي الدّين. رسالة الذي لا يعوّل عليه. الكرامة للنشر، 2017، ص27.
(33) أدونيس. النظام والكلام. ص210.
(34) أول الجسد آخر البحر، ص62.

يحاكي النموذج الإلهي، فآدم مثال أو تخلّق إلهي. فحب المرأة هو حب الله. وكما أن آدم مرآة تجلت فيها صورة الله، الشكل القادر على أن يكشف جميع أسمائه، فإن المرأة هي المرآة، المظهر الذي يتأمل فيه الرجل صورته الخاصة، التي كانت وجوده المختبئ أي ذاته التي يجب أن يعرفها لكي يعرف الله.)"[35](

فكون الأنوثة منفعلة " ولا يوجد شيء إلا وهو منفعل لأنه ما من شيء يخلو من التأنيث، فكن على أي مذهب شئت لأنك لا تجد إلا التأنيث، حتى الرجل نفسه لا يخلو من بصمات أنوثة باعتباره منفعلاً. وما الإنسانية إلا هذا الامتزاج بين الذكورة والأنوثة"[36]

إن فكرة الحب في التصوف عامة وعند ابن عربي خاصة قائمة على فكرة وحدة الوجود، وحدة المحبوب والمحب، هذه الوحدة التي تصل بنا إلى الحق. وتعود بنا هذه الفكرة إلى نظرية ابن عربي عن "النكاح الوجودي" القائم على التقاء عنصري الذكورة والأنوثة."يمثل العقل الأول عنصر الذكورة، وتمثل النفس الكلية عنصر الأنوثة، وعن تناكحهما انبثق الجسم الكل، أو العرش. على هذا المستوى فقط تتأكد الندية والمساواة"[37].

وهذا مخالف بالتأكيد لما هو سائد في الأنظمة الاجتماعية والثقافية واللغوية " فالمذكّر هو الأصل، والمصدر، والمبدأ الفاعل. والمؤنث هو الفراغ، والمعلول ، والتابع المنفعل. فأولويّة المذكر، الذي هو أشدّ تمكناً، تقتضي ثانوية المؤنث، ولهذا كان التأنيث يخرج من التذكير، ويبقى محكوماً به، وراجعاً إليه رجوع الفراغ إلى الأصل"[38].

أما أدونيس فهو أقرب إلى فكر المتصوفة في تحليله لوحدة الذكورة والأنوثة مؤكداً على أن الوصول إلى المعرفة يحتاج إلى أن يكون الإنسان منفعلاً وفاعلاً في آن معاً وإلا كانت معرفته ناقصة، وهذه الرؤيا لا تتحقق إلا من خلال المرأة، كونها تجمع بين الانفعال والفعل/ أي أن تكون مخلوقة وخالقة في آن معا، فالإنسان" فاعل (يتأمل ذاته، فيرى الله، مفكرا بأن حواء خلقت منه) ومنفعل (يتأمل ذاته، فيرى فيها الله، ناسيا أن حواء خلقت منه). لكنه في الحالتين لا يحقق إلا معرفة لذاته ولخالقه من طرف واحد. ولكي يصل إلى المعرفة الشاملة التي هي فعل وانفعال، فإن عليه أن يتأمل ذاته في كائن هو في آن مخلوق وخالق. وهذا الكائن هو المرأة: حواء التي هي على صورة نفس الرحمن، خالقة الكائن الذي خلقت منه (مريم خلقت الله الذي خلقها). ولهذا فإن الأنثى هي الكائن بامتياز، والحب الصوفي يجمع فيها الروحي والحسي، ويرتبط بصورة التجلي. فالأنثى هي التجلي بامتياز (هي صورة الله)"[39]، وهو بذلك يصل إلى أن المرأة هي نواة الأشياء، فاللغة كشفت عن " حقيقة ماورائية هي أن الأنثى أصل الأشياء، فكل ما هو أصل يسمى في اللغة العربية أماً"[40].

من هنا يمكننا أن نقول إن الآخر قابع فينا، كذات أخرى ، فالآخر هو أنت؛ ذات واحدة تكتمل بالوحدة واكتمال المعرفة. فأن تعرف نفسك هو أن تعرف ذاتك الأخرى، إنها وحدة تكوينك القائمة على الأنوثة والذكورة معاً، فالعقل الكلي لا بد من أن يكون مخنثاً لكي يتمكن من اكتشاف العالم وقراءته بكليته.

---

[35] الثابت والمتحول، ج1، ص284- 285.

[36] راضي، يحيى محمد. الحب في التصوف الإسلامي (ابن عربي نموذجا).الطبعة الأولى، دار الهادي، 2009، ص329.

[37] د. أبو زيد،نصر حامد. هكذا تكم ابن عربي،الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، 2006، ص286.

[38] د.سليطين، وفيق. إشكالية التأنيث في تجاذبات الوجدان الأبوي. ذوات. الكتابة النسائية في مواجهة العنف، مجلة ثقافية إلكترونية ، العدد 34، 2017. تصدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. ص93.

[39] الثابت والمتحول. ج1. ص285.

[40] نفسه. ص286.

الخاتمة:

من قال أن الأضداد لا تلتقي فقد كان مخطئاً، فاكتمال وجودنا يعتمد بشكل أو بآخر على تلاقي تلك الأضداد التي يقوم الوجود على أساسها (قطبي الذكورة والأنوثة). وكان لا بد من التأكيد على أهمية المرأة كونها أصل الموجودات، من أجل إثبات حضورها المؤكد في الذات الذكورية مهما حاول الفكر الأصولي أو الرجعي من إثبات ثانوية المرأة وشيئيتها، ومحظور اقترابها من عرش الذكورة.

ولعل تلك الخنوثة التي حاول أدونيس إثباتها في أشعاره ما هي إلا رمز إبداعي، حاول من خلاله تأكيد حضور المرأة كأصل، تنطلق الموجودات من رحمها، محتفظة بالضرورة بتلك الصبغة الأنثوية.

إن مفهوم أدونيس حول الوحدة الكلية، يلتقي مع مفهوم المتصوفة، كونها الكفيلة للوصول إلى المعرفة.

المصادر والمراجع

المصادر

أدونيس: أول الجسد آخر البحر. الطبعة الأولى، دار الساقي، 2003.

ليس الماء وحده جوابا عن العطش. الطبعة الثانية منقّحة، دار التكوين، 2010.

اهدأ هاملت تنشق جنون أوفيليا. الطبعة الأولى، دار الساقي، 2008.

ورّاق يبيع كتب النجوم. الطبعة الأولى، دار الساقي، 2008.

الثابت والمتحول(بحث في الإبداع والاتباع عند العرب). ج1. الطبعة الثامنة، دار الساقي، 2002.

موسيقى الحوت الأزرق(الهوّية، الكتابة، العنف). الطبعة الأولى، دار الآداب، 2002.

فضاء لغبار الطلع. كتاب دبي الثقافي يصدر عن مجلة دبي الثقافية، الطبعة الأولى، دار الصدى، الإصدار 40، 2010.

تنبأ أيها الأعمى. الطبعة الأولى، دار الساقي، 2003.

المحيط الأسود. الطبعة الأولى، دار الساقي، 2005.

النظام والكلام. الطبعة الأولى، دار الآداب، 1993.

المراجع:

1–ابن عربي، الشيخ مُحيي الدّين، رسالة الذي لا يعوّل عليه. الكرامة للنشر، 2017.

2–ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب (15 مجلد)، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، 1994.

3– د. أبو زيد، نصر حامد. *هكذا تلم ابن عربي*، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، 2006.

4– باليا، كاميلي. *أقنعة جنسية. الفن والانحطاط من نفرتيتي إلى إميلي ديكنسون*. ترجمة وتقديم: ربيع وهبه، الطبعة الأولى، دار التنوير، المركز القومي للترجمة، 2015.

5- براضة، نزهة. الأنوثة في فكر ابن عربي. الطبعة الأولى، دار الساقي، 2008.

6- بني عامر، معاذ. الجسد والوجود، العتبة المقدسة. الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 2015.

7-حب الله، عدنان. *التحليل النفسي للرجولة والأنوثة من فرويد إلى لاكان*. بإشراف المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية ، دار الفارابي.

8-حرب،علي. *التأويل والحقيقة(قراءات تأويلية في الثقافة العربية)*. دار التنوير، 2007.

9-حرب، علي. *الحب والفناء(المرأة / السكينة/ العداوة)*. الطبعة الثانية، منشورات الاختلاف، 1990.

10-دي بوفوار، سيمون. *كيف تفكر المرأة؟*.المركز العربي للنشر، الاسكندرية.

11-راضي، يحيى محمد. *الحب في التصوف الإسلامي (ابن عربي نموذجا)*.الطبعة الأولى، دار الهادي، 2009.

12-ريك، ثيودور. *سيكيولوجية العلاقات الجنسية*. تر: ثائر ديب. الطبعة الأولى، دار المدى، 2005.

13- د.سليطين، وفيق. إشكالية التأنيث في تجاذبات الوجدان الأبوي. ذوات. الكتابة النسائية في مواجهة العنف، مجلة ثقافية إلكترونية ، العدد 34. تصدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. 2007.

14- سيرنج، فيليب. الرموز في الفن-الأديان- الحياة. تر:عبد الهادي عباس، الطبعة الأولى، دار دمشق،1992.

15-شستاكوف، فياتشيسلاف. *الأيروس والثقافة(فلسفة الحب والفن الأوروبي)*. تر: نزار سود عيون السود، الطبعة الأولى، دار المدى،2010.

16-الغذامي، عبد الله محمد. *النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية*. الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005.

17-الغذامي، عبد الله. *المرأة واللغة*. الطبعة الثالثة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،2006.

18-محمود، ابراهيم. *الأنثى المهدورة (لعبة المتخيل الذكوري في صناعة الأنثى)*، الطبعة الأولى، مركز الإنماء الحضاري.2009.

19-موران، أدغار. *النهج إنسانية البشرية. الهوية البشرية*. تر: د. هناء صبحي، الطبعة الأولى، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث(كلمة)، 2009.